

عاقبة سليمة

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

لم يتفق الناس إلى الآن على وسيلة يدفع المرء بها عنه ثقيلاً يتصدى له ، ويلج عليه بما لا يسهه أن يجيبه إليه ، فالأمر متروك إلى صدق الروية ، وسرعة الخاطر ، وحسن البديهة ، ولكل موقف ما يقتضيه ، ويدفع إليه وينرى به ، والذي يُلهمه الواحد في موقف لا يُلهمه واحد آخر في الموقف عينه ؛ فإذا بدا لي أولك ما لجأ إليه « حامد » غريباً أو شاذاً أو غير لائق ، فلا تلمه ولا تنع ذلك عليه ، فإن عنده أنه لم يخطر له سواء ، وأن الموقف كان يتطلب السرعة واتقاء الجدل ، فقد كان - كما لا تعلم - في قهوة « الحمام » - بفتح الحاء - وكانت منه « فريدة » وهي بنت عمه ، وكان بينهما من الود أكبر مما يكون في المادة بين ذوي القربى ؛ وكانت تنطوي له على حب هادئ ، ومحس - بفطرتها الذكية - أنه يصبو إليها ، ولكنها كانت تراه لا بصارحها بشيء ولا يبتها أسراً ، ولا يدع انظماً أو عملاً بشيء بهواه هذا ، فنجحت إلى الشك ، ثم بثت . ولما تقدم أحد أغنياء الريف بخطبها ، أغرت أباهما بالتلكؤ ، لعل حامداً يتحرك ، ولكنه لم يفعل . فقالت لنفسها إذا لم أتزوج من أحب ، فانه لا يبقى أمامي إلا زواج المال والوجاهة . . . وهكذا حدث ، أعني أنه لم يحدث ، وإنما احتفل بقبول هذا الوجيه الريفى ، وبتقديم « الشبكة » إلى عروسه المستقبلية ، على أن يكون المقدم ليلية الجلوة

ومضت أيام ، والتقى حامد بها خارجة من متجر كبير ، تخطت إليه وهو بهم بركوب سيارته وسأته :

« لماذا هذه الجفوة ؟ »

فضحك وقال : « الجفوة ؟ إنما أفصح لمن هو أحق سنى » فتلفت ثم قالت : « سأصرف سيارتي وأركب معك ، فهل تقبلني ؟ »

قال : « ليس لي خيار ، انك كهذا الهواء ، لا غنى عنه » قالت : « أشكرك » وصعدت إلى جانبه وأشارت إلى

سائقها أن ينصرف . وسألها حامد :

« إلى أين بنا ؟ »

قالت : « إلى مكان فيه هواء ، وطعام ، فاني جائئة وحرى » فمضى بها إلى قهوة الحمام على النيل ؛ فأكلوا شيئاً وشرب هو قدحاً من البيرة - أو الجمرة كما تسمى - وقالت له على الطعام :

« لماذا لم تهنتنى ؟ »

قال : « أهنتك من اعماق قلبي ، ولكن بأى شيء ؟ »

قالت : بخطيبي - ثم انك لم تحضر - لماذا ؟ »

قال : « آه صحيح ، مبروك ! لقد سمعت أنه غني جداً ، ووجهه في بلده »

قالت : « نعم ، إن غناه مضافاً إلى غناى خليق أن يساعدي على ما يعيل اليه طبعى من البذخ والترف . صحيح ، فاني لا أطيق الفقر ، ولا أستطيع أن أحيأ حياة رقيقة الحال »

قال : « أعرف ذلك - أو أنا على الأصح قدرته »

فحدثت في وجهه فقال : « نعم ، لقد انتعى كل شيء الآن فلا ضير من الصراحة ، ومن الممكن أن أكشفك بالحقيقة . . . » فقاطعت وقالت : « هل تمنى أنك . . . »

ولم تتمها ، فقال : « نعم ، قدرت أن لا أمل لي ، فان عمى غنى وأنا فقير ، وقد عطفه على أئى ابن أخيه »

فقالت : « ولكنك لست بفقير ! »

قال : « أعنى نسيباً . . . كل ما أ كسب بعد الجهد والعناء ستون جنبها في الشهر . وما خير ستين لمن تنفق وحدها - وهي فتاة في بيت أبيها - أكثر من هذا القدر ؟ »

فلم تقل شيئاً ، وقرت الحديث بمد ذلك ، وصارت متقطعة ، وإن كان حامد لم يقصر في توجيهه إلى كل ناحية تخطر بالبال . ثم قاما ، وانهما ليتخطيان باب القهوة وإذا بفريدة تشد على ذراع حامد وتقول بصوت يكاد يكون همساً : « حامد ! هذا هو ! »

فتلفت وهو يسأل : « من ؟ » ولكنها ذهبت تعدو إلى السيارة وفتحت الباب الخلفى وأغلقتة وراءها ، وانطرحت على أرضها - لا مقعدها - فأهمل حامد السؤال والجواب ، ودخل سيارته وأدار المحرك ، ولم يفته أن يحكم ايمص الأبوأ حتى لا يفتحها أحد من الخارج ، وأسدل الستار الخلفية فاستحال

وقالت فريدة لحامد في بيتها عصر يوم :

« هل تعرف لماذا دعاك عمك ؟ »

قال : « لا »

قالت : « ليسألك عما حصل في قهوة الحمام ، وعلى بابها »

قال : « من أخبره ؟ أنت ؟ »

قالت : « بل هو »

قال : « هو ؟ »

قالت : « نعم ، ألا تعرفه ؟ الخطيب ! واتهمني بالسكر

أيضاً »

قال : « اتهمك أنت ؟ ولكنك لم تذوق شراباً سوى

الماء . أما القى شربت بيرة »

قالت : « ولا أنت — قام ؟ »

قال مستغرباً : « ولا أنا ؟ ولكنني شربت بيرة — ولم لا

أشرب ؟ وماذا يدعوني أن أقول غير الحق ؟ »

فهزت كتفيها وقالت : « كما تشاء ! ولكنني أنذرك إذا

اعترفت »

فسألها متعجباً : « تنفريني ؟ لست فاهماً »

قالت : « يا صاحبي ، لا أستطيع أن أتزوج سكيراً — أنا

هكذا — من الطراز القديم المحافظ »

فانتفض وانفأ وصاح : « ماذا تقولين ؟ »

قالت بضحك : « اليس كلامي مفهوماً ؟ »

قال : « ولكنك مخطوبة ؟ »

قالت : « كنت مخطوبة أما بعد أن كشفت لي عن

حك المكثوم ، فقد اغتتمت الفرصة وقذفت بالشبكة في وجهه »

قال : « ولكنني فقير »

قالت : « وأنا أحب الفقر ليس أمتع منه ، لا تخف

أن أجيء اليك بشئ الثقيل المنفر والآن ألا تقبلني ؟ »

فدنا منها وهو يقول : « لم ألم شفيتك منذ »

فقالت : « منذ يناير سنة ١٩٢٧ دونت ذلك في

مذكراتي « اليوم لم شفيتي »

ابراهيم عبد القادر المازني

أن يرى أحد فريدة وهي راكدة - ولم يكن حامد يعرف ممن تجرى
ولا كان يدري ما يخفيها ويدفعها إلى التخفي ، وإنما كان يدري
أنها تريد ذلك ، فطيه أن يكون عوناً لها

ومد يده إلى قاتل السرعة ، يريد أن يضمه في المكان
الأول ، وإذا برجل ضخم هائل الأضواء ، ولكنه أنيق الثياب
محبوكها يقول له :

« لحظة ! لقد رأيت فتاة تدخل هذه السيارة ، فافتح

الباب من فضلك لتخرج »

فابتسم حامد وقال : « رأيت فتاة تدخل في هذه السيارة ؟

أوائق أنت ؟ » وتلفت وراءه ليطمئن

فقال الرجل بلهجة جافية : « أقول لك افتح الباب »

فقال حامد : « معذرة ، ولكنك مخطيء إلى لست

سائق سيارتك »

فاحتد الرجل وصاح به : « انها انها ألا تنوي

أن تفتح ؟ »

وطال الباب ، ولكنه كان موثداً من الداخل ، فأعياء

فتحه ، فارتد إلى نافذة حامد وقال بصوت اجتمع له الناس :

« افتح أقول لك افتح أخرج هذه الفتاة »

وصار المحتشدون على الرصيف جمماً حافلاً ، وأكثرم من

العامة والنوميين ، والصبيان ، وسائق السيارات المختلفة ، وعلت

أصواتهم بالنكات والضحك ، فزاد الرجل حماقة ، وجعل يدق

الباب بجمع يده ، وتهور فوضع قدمه على سلم السيارة وهم أن

يدخل رأسه من نافحتها لينظر ، فلم يبق مفر من عمل عمله حامد

ليدفعه عنه ويتخلص منه ؛ ولو غيره في مكانه لكان الأرجح أن

يلكمه ، ولكن حامد لم ير أن يتق شرأ بشر ، واكتفى بأن

يطير له طربوشه عن رأسه ، فطار عقله وراءه ، وارتد عن

السيارة لينقذه من التراب الليل — أو الوحل — وسر الناس

هذا المنظر فضحكوا ، وضحكوا ، واغتنمها الصبيان فرصة فاقبلوا

على الطربوش يدفعونه بأرجلهم كأنه كرة ويصيحون ويصخبون ،

والرجل يسبهم ويلعنهم ويحاول أن يدرك واحداً منهم ، ولكنه

ثقيل وهم خفاف ، فكف ، وعاد إليه الرشد مع التعب ، ونظر

فأنا السيارة قد غابت !